براءة طفل ابن ثلاثة أشهر تعيد البراءة والحياة لمجرم شاب فقد عالمه الآمن

«تسوتسي»: فيلم من جنوب إفريقيا عن العنف في مدن الصفيح والإيدز والأبارتيد والصفح والغفران

لقطة من فيلم «توتسي»

ابراهيم درويش*

■ اثول فوغارد، كاتب ابيض يعود في اصوله للافريكان وايرلندا، كان من الكتاب الذين جسدوا صورة جنوب افريقيا في اثناء التمييز العنصري، وروايته «تسوتسي» كتبها في الخمسينات ونشرت في الثمانينات من القرن الماضي والان تحولت الى فيلم سينمائي من اخراج غافين هود من جنوب افريقيا. الراوية عن مجرم شاب يصارع احلام طفولته، الفقر والتشرد وعذاب الضمير هي عن جنوب افريقيا واحياء الفقر في سويتو. وفاز «تسوتسي» بجائزة اوسكار للفيلم الاجنبي في اذار (مارس) عام 2006 هو ايضا عن جنوب افريقيا في فترة ما بعد الابارتيد. والفيلم يبدأ بايقاع موسيقي عال، يقوم فيه «تسوتسي» البطل الرئيس في الفيلم (لعب دوره بريسلي تشوينياغي) بمغادرة غرفة التنك التي يعيش فيها مع رفاق العصابة بوتشر (زينزو نيغوبي)، والقاتل المحترف وصديق الطفولة والتشرد لتسوتسي (اياب)، وبوسطن، القاتل الذي دخل المدرسة يوما لكي يصبح مدرسا.

يذهب الاربعة في رحلة للسرقة في محطة قطار جوهانسبرغ. اللعبة معروف. مراقبة حركة المسافرين بصمت وانتهاز فرصة ان يقوم بها شخص باظهار ما يشي انه يحمل في جيبه نقودا، وعندها تبدأ عملية الملاحقة في القطار المكتظ، في تلك الليلة يشتري رجل اسود من فتاة هندية ما يبدو انه شال لزوجته ويخرج من جيبه مغلفا بنيا مليئا بالنقود. يعطي تسوتسي الاشارة للملاحقة، يحاصر الرجل العجوز من قبل العصابة، ويتم قتله في عربة القطار المزدحمة، تنتهي الرحلة ويخرج جميع الركاب وتترك العصابة القطار والرجل العجوز مضرجا بدمه. في تلك الليلة، بوسطن، الذي لا يتحدث الا وزجاجة الخمر بيده يعنف تسوتسي على فعلته وبفعل الخمر يتحداه ان يكشف عن اسمه الحقيقي، فهو على معرفته الطويلة به لا يعرف اسمه الحقيقي ولا من اين جاء، وعندها يقوم تسوتسي بضربه ضربا مبرحا ويتركه هاربا في طريق هرب به في الصغر.السرقة هي واحدة من عمليات العصابة، اما الاخرى فهي سرقة السيارات، في حي راق، يراقب تسوتسي وحيدا سيدة سوداء غنية تصل الى بيتها المحصن بالبوابة الكهربائية، عندما لا تفتح البوابة تذهب سيدة البيت بولما (نامبيثا امفولانا) لاعلام زوجها في البيت، في تلك اللحظة ينتهز تسوتسي الفرصة ويقوم بسرقة السيارة بعد اطلاق النار عليها ويهرب، وفي منتصف الطريق يجد انه لم يكن وحيدا في السيارة، ويكتشف صوتا طفل صغير في المقعد الخلفي.لا يعرف المجرم تسوتسي ماذا يفعل بالطفل الصغير الذي لا يتجاوز الثلاثة اشهر، هل يتركه، يأخذه، والانطباع الاول هو قتله للطفل وبعده الانزلاق نحو مدينة الصفيح المليونية حيث لن يعرفه احد، او يأخذ النقود الموجودة في حقيبة السيدة ويهرب تاركا الطفل. كل هذه التوقعات التي ترفع درجة التوتر في الفيلم لا تتحقق، عندما يقرر تسوتسي اخذ الولد الصغير الى غرفته في مدينة الصفيح ويحاول ان يعتني به، وعندما يفشل يجبر امرأة جميلة ميريام (تيري فيتو) على ارضاع الطفل. وعندما تفيق الام من غيبوتها تقدم وصفا للشرطة عن السارق تسوتسي، وعندها يبدأ رحلة الندم.

في تسوتسي الكاميرا تركز دائما على وجه البطل الشرير، وتنقل اكثر من بعد، الصرامة والقسوة والشدة التي لا تتوافق مع شاب لا يتجاوز العشرين من عمره، ولكن الملامح تتغير كلما تطورت احداث الفيلم، وعندما ينظر الى وجه الطفل يتذكر امه المريضة بالايدز وموقف والده القاسي المدمن على الشراب والذي منعه من الاقتراب منها. في عالم عصابات مدن الصفيح، تعتبر عدم قدرة الشاب تسوتسي على قيادة السيارة عيبا، فرئيس العصابة لا يسوق السيارات فقط ولكنه يتاجر فيها، ولكن رمزية العجز امام السيارة تعني انه يعيش حياة بدون اتجاه، ولا دليل او مرشد له ولهذا دائما يصدم تسوتسي السيارة ويحطمها.

فيلم «تسوتسي» من الصعب مشاهدته للعنف والفقر والتشرد فيه، فهو على خلاف افلام عنف عن مدن الصفيح مثل "مدينة الله" البرازيلي يتحدث عن عنف المجتمع الذي يواصل اندلاعه وانفجاراته، ومشاهد القتل والجريمة هي مشهد مصغر عن مشهد الموت الذي لا يزال يتحكم بحياة سكان مدن الصفيح على الرغم من العهد الجديد. الفيلم هو عن اللوم، لوم المجتمع، عن جريمة ارتكبت بحق المجرم عندما كان طفلا، جريمة البيت المهدم، الام المريضة التي تريد ان تقول ان كل المجتمع في احياء الفقر مصاب بالايدز والرجال الذين لا يحبون الا الزجاجة، والجريمة هنا بحق الطفل تبدو واضحة في دفعه للهروب من البيت والنمو في اعمدة اسمنتية ملقاة على حواف المدن الفارهة التي تتطاول ببناياتها الكبيرة وقرب بيوت الصفيح التي تفرخ الموت واليأس والخوف والقتل، طوال طفولته يعيش في هذه الاعمدة معتمدا على السرقة قبل ان يتمكن من تشكيل عصابته وينتقل الى قلب المدينة المكتظة بالناس. ورغم قساوة الوضع الا ان الفيلم هو ايضا عن رحلة التحررمن الاثم والخوف، عن الكيفية التي تتغير فيها حياة مجرم بسبب طفل صغير لم يتجاوز الثلاثة اشهر. الطفل البريء بصفحته البيضاء يحدث انقلابا في حياة الشاب المجرم الذي اكتشف فيه براءته المفقودة مع ان كليهما نتاجٌ عن مجتمع مختلف، «تسوتسي» اجبرته الدولة على المضي في طريق الشر،اما الصغير المختطف الان فهو من ابناء الطبقة الراقية من السود. علاقة تسوتسي بالطفل هي محاولة للاعتراف، القول ولو بطريقة غير مباشرة «آسف» على كل الاعمال التي يقوم بها و لكنه لا يتحدث بلغة مباشرة عن ذنب المجتمع، ولكن عبر الحركة وعلاقته مع الطفل الذي يعطيه اسمه، نعرف ان الشاب يمر بمرحلة من الاصلاح، او العودة الى البراءة التي حرمها منه المجتمع. و «تسوتسي» هو اللقب الممنوح الى المجرم الاسود برطانة مدن الصفيح، واتخذه البطل للتغطية على ماضية ورعبه.

وظهور الطفل في حياته اعاد اليه ماضيه المقهور، ومن هنا فعملية التحول من مجرم الى الطفل الذي كانه هي رحلة سيكولوجية، فتسوتسي سار في طريق الجريمة و الاجرام لان الحياة اجبرته على ذلك ولان لعبة البقاء في عالم المدن التحتية تقتضي ذلك. ولكن هذا الطفل الصغير يكشف عن حجم الرضوض والمخاوف في داخل البطل الشرير/ تسوتسي. فالجريمة هي محاولة لايقاف العنف بالعنف. في الماضي كان تسوتسي يحمي افراد عصابته بالعناية بهم وباستعراض قوته امامهم، فالقيادة لا تتم الا بالعنف، يضرب صديقه بوسطن ويلقيه ارضا مضرجا بدمه، وفي محاولة لمنع جريمة قتل اخرى يقتل صديقه «بوتشر». مع وصول الطفل ودخوله المفاجيء في حياته يقوم الطفل بوضع حد لهذه التصرفات، فهو لم يكن كمجرم جاهزا اصلا للتعامل مع طفل، تنظيفه، اطعامه، وعندما يجبر سيدة على ارضاع الصغير، يتكشف عالم جديد له لم يكن يعرفه، عالم الامومة وعالم البيت الآمن على الرغم من المأساة التي تعاني منها المرأة التي قتل زوجها عندما كان عائدا من العمل، وربما كانت عصابة تسوتسي هي التي قتلته. تسوتسي على الرغم من الخوف ومشاهد العنف فيه الا انه فيلم ايجابي، عن التحرر من الخوف كطريق للخروج من حياة الشر، وهو رؤية من الداخل عن حياة سكان مدن الصفيح التي ترفض الشرطة دخولها لان سكانها باللايين ويكتظون في بيوت خشبية او من الصفيح، ولكن في داخل هذه البيوت حيوات لا تعيش اليأس، وهناك في داخل الفقر امكانية لاصلاح النفس. تعكس الكاميرا دائما ما يدور في ذهن البطل الشرير في تحولاته عبر التركيز على ملامح وجهه ونظراته، والتركيز على الوجه يعكس درجات من التوتر داخل الفيلم، اولا عند اكتشاف الطفل الصغير، وعندما يواجه الرجل المشلول الذي يجمع الصدقات من المارة والمسافرين في محطات القطارات يسأله عن السبب الذي يجعله وهو العاجز، المريض يواصل الحياة، فعندما يقول له انه يحب رؤية الشمس ويتحسسها على يديه يتركه ويعود. ولكن درجات التوتر العالية تظل مرتبطة بالطفل فهو يلقي بظله على حركة الفيلم حتى عندما اخذه الى غرفته كنا نتوقع في اي لحظة ان يقتل الطفل او ان يموت من الجوع، ولكن هذا لم يحدث ابدا. وحتى عندما بدأ بالعناية بالولد، كنا نعرف انه ليس اهلا للام، فهو يترك الولد مع علبة صفيح من الحليب المركز والتي تدعو جيشا من النمل، وقبل ذلك عندما يكتشف ان الولد بحاجة للتنظيف، ينظفه ويلفه باوراق صحيفة قديمة. وتسوتسي هو عن الحياة الجديدة في جنوب افريقيا، ففي الاحياء الراقية البعيدة عن فقر مدن الصفيح هناك طبقة من السود تستفيد من الوضع الجديد، وعندما يقود عملية ضد بيت الولد تحرص الكاميرا على اظهار مدى الثراء والحياة المرفهة التي تعيشها العائلة ومنها غرفة الطفل الصغير- مقارنة مع الغرفة التي يعيش فيها في مدينة الصفيح والغرفة التي تعيش فيها الارملة مع ابنها. هنا بلد جديد للسود غير بلد المحرومين. يذكر فيلم تسوتسي بافلام الواقعية الجديدة في ايطاليا في الاربعينات من القرن الماضي، فتسوتسي/ ديفيد يقدم عبر الكاميرا بصورة قاسية لا يمكن التعاطف معها، وبشكل تدريجي تكشف الكاميرا عبر عدد من الاستعادات عن الظروف التي شكلت حياة الشاب. في داخل القسوة كانت فسحة للتراجع والاصلاح. في نهاية الفيلم عودة الى الذات، عندما يعطي الرجل المشلول المال الذي نثره على الارض، وعندما يذهب الى البيت الذي ارتكب جريمة ضده. نهاية الفيلم لا تعني الكثير، فهو لم يهرب كما يفعل المجرم عندما يحاصره رجال الشرطة، ولم يقم باستخدام الطفل لتأمين الهروب، بل تصرف كحدث يعرف انه ارتكب خطأ ما، ويرتجف خوفا من الآتي وليس من المصير، فهو واحد من الاف الضحايا في جنوب افريقيا، ضحايا العنف والفقر والتشرد والعنصرية. في تحولات تسوتسي، تلعب الام ميريام دورا ذكره بدور الام، ورفضها لماله الذي سرقه من بيت الثري الاسود، كان اشارة عن الحياة النظيفة التي تحاول عائلات كثيرة في مدن الصفيح عيشها، وميريام هي بمثابة الام التي فقدها، وعندما ذكرته انه حتى لو اعطى الطفل الحليب وارضعه اياه فلن يكون امه الطبيعية، وافضل شيء يقوم بعمله هو اعادته لامه الحقيقية التي فقدت القدرة على المشي بسببه. ولهذا فميريام هي ضميره، ضمير الام التي تطمح لابنها بالحياة المستقيمة.

غافين هود في رسمه لملامح التحول في حياة مجرم هو تسوتسي، يعيد الكثير من تقنيات الواقعية الجديدة في السينما الايطالية. منذ ان ظهر الطفل في السينما خاصة في فيلم تشارلي تشابلن (الطفل) نعرف ان مسار الفيلم اما يتحول الى الكوميديا او التراجيديا، وفي تسوتسي، اللحظات التراجيدية فيها الكثير من الابعاد الساخرة. رغم ان الفيلم عن جنوب افريقيا في اثناء التمييز العنصري وما بعده الا اننا لا نرى الا ظلال تلك الفترة القاسية التي لا تزال تلقي بثقلها على الاحياء المكفهرة، الشوارع المغبرة، الاطفال المشردين، وحبال الغسيل المتناثرة بطريقة كرنفالية على الاسلاك الشائكة، وطوابير السكان تبحث عن الماء من مضخة الماء الوحيدة في الحي. ولكن في داخل هذا الجو القاتم هناك حياة او حيوات جميلة، ترغب في الحفاظ على انسانيتها، واستقامتها، والعيش بحرية وكرامة. ربما كانت مريام هي الوجه المخفي، الوجه الاخر لاحياء التنك التي تحاول الخروج من عزلتها. عندما انتخب نلسون مانديلا كان طموح ابناء احياء التنك هو الحصول على بيت، وبعد اكثر من عشرة اعوام ما زالوا ينتظرون البيت الامن.

فاز الفيلم الذي انتج بميزانية متواضعة بجائزة الاوسكار لأحسن فيلم اجنبي، حيث ان لغته هي «تسوتسي – تال» او «اسيكماثو» وهي اللهجة او الرطانة التي تستخدم في مدن الصفيح الافريقية وتقوم على الافريكان، زولو، خوسا، وتسوانا وسوثو.

بقي ان نقول ان اثول فوغارد (ولد عام 1932) عاش في بورت اليزابيث، وبعد تجربة قصيرة في التمثيل بدأ يكتب مسرحيات، كلها عن جنوب افريقيا، وتحمل دائما ابعادا سياسة عن الابارتيد وما بعد الابارتيد. ولكن السياسي لا يؤثر على الطريقة التي يتعامل فيها مع الشخصيات، سواء كانت قوية او ضعيفة وتعاني من مشاكل في علاقتها مع المجتمع، او لا تعرف وضعها وماهية الدور المناط بها. في عام 1963 قامت السلطات العنصرية بمصادرة جواز سفره بعد ان عرض مسرحية «عقدة الدم»، واعماله الاخرى في تلك الفترة مثل «سويزي بانزي ميت» و «الجزيرة» و «نمر الكابتن» وغيرها صورة عن تلك الفترة في رعبها وقساوتها وشحنتها السياسية. وروايته «تسوتسي» هي الرواية الوحيدة التي كتبها.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

تداعيات

حياة بلابسي: حكاية من دير ياسين

رشاد أبوشاور

■ عثر رجال الهلال الأحمر، بعد مجزرة (دير ياسين) على جثّة فتاة في قميص النوم، ملقاة بالقرب من طريق فرعيّة، مؤديّة إلى القرية، فتعرّفها بعضهم، فإذا هي المعلّمة حياة بلابسي!

هكذا يبدأ القّاص الفلسطيني الرائد نجاتي صدقي قصّة (حياة بلابسي)، والتي تضمها مجموعته القصصية (الأخوات الحزينات) التي أعدنا إصدارها في طبعة متقشّفة عام 81، عن منشورات الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين.

قبل قراءتي لقصة (حياة بلابسي)، وكلّما استذكرت مذبحة (دير ياسين)، تساءلت عن تلك المعلّمة، ولم أجد جواباً.

ولكن ما كتبه الراحل الكبير نجاتي صدقي أعطاني الجواب على أسئلتي.

في الفقرة الثانية من قصّته يخبرنا بلقائه بها: قابلتها لأوّل مرّة في أواخر سنة 1947، وقت أن قدّمت للإذاعة موضوعاً أدبياً أرفقته بكتاب تقول فيه: أرجو أن أتمكن من إذاعة حديثي هذا في أقرب فرصة ممكنة.

في الفقرتين الأوليين من القصّة يزوّدنا نجاتي صدقي بحقائق عن تلك الفتاة، وهي أنها شخصيّة واقعية من لحم ودم، وأنها معلّمة القرية فعلاً، وأنه التقاها، ووصله منها موضوع أدبي، وهذا يعني أنها كانت تتهيأ لتكون كاتبة !

نجاتي صدقي كان آنذاك يعمل في الإذاعة (الشرق الأدنى) التي كانت تبثّ من (يافا)، ولها مكاتب في (القدس)، وكان أديباً لامعاً...

يقّص علينا نجاتي صدقي من الواقع، لا من الخيال، ببراعة سارد متمكّن، يعرف كيف يستدرج القارئ، ويسرّب إليه الحقائق بسلاسة تمتع، وتغري بمتابعة القراءة.

تبدأ القصّة وكأنها خبر، فهي تسجيليّة، لا مخترعة، والخبر جذّاب وفيه إثارة، وجملته الأولى تقريريّة: عثر رجال..الخ.

ثمّ ينتقل بنا الكاتب ليعرّفنا بتلك المعلّمة، ويبدأ من لقائه بها، وبسبب اللقاء، وهو طموحها أن تكتب، وأن يذاع ما تكتبه على الناس، فهي شخصيّة طموحة، موهوبة...

كيف كان اللقاء بين الكاتب والمعلّمة الشّابة صاحبة الموضوع الأدبي ؟

نقرأ: وفي عصر أحد أيّام كانون الثاني (يناير) من سنة 1948 وكان الثلج يتساقط بكثرة في القدس، والرياح العاتية تعصف بشدّة، دخلت علي (حياة) وقد تدثّرت بمعطف بسيط، ولفّت رأسها بمنديل من الصوف وقد رصّع بقطع صغيرة من الثلج، فظهرت وكأنها إكليل من زهر الليمون، رمز العفّة والطهارة يطوّق رأسها الجميل..وفي هذه المقابلة عرفت منها مأساتها !

حياة فقدت والدها، وأمّها عليلة طريحة الفراش، وهي كافحت لتكمل تعليمها، ووصلت إلى نهاية المرحلة الثانوية، وكانت تستعدّ لتقديم شهادة (المترك)، ولكن الحاجة دفعتها للبحث عن عمل لتعيل نفسها وأمّها وأختها. عيّنتها دائرة المعارف معلّمة (تكميليّة) في قرية (دير ياسين)، والتي تبعد عشرة كيلومترات غربي القدس، حيث كان عليها أن تمشي يومياً من القدس إلى القرية ذهاباً وإيّاباً قاطعةً مسافة عشرين كيلومتراً عبر الأحياء والمستعمرات اليهوديّة غربي القدس. كانت حياة مضطرّة للنهوض منذ السادسة صباحاً لتصل القرية، وكانت تأتنس بالفلاّحين السارين إلى حقولهم، والذين مع الوقت باتت بينها وبينهم ألفة ومودّة، فهم يتبادلون الحديث معها مستفسرين عن بنيهم وبناتهم الذين تعلّمهم، وهم يكنون لها الاحترام لجدّيتها وشجاعتها.

حياة بعد وفاة والدتها قررت الانتقال إلى القرية، والإقامة في غرفة من غرف المدرسة، متحمّلة ظروف وحدتها القاسية.

نقرأ في القصّة: ومضت أيّام وأسابيع تأزّمت في أثنائها العلائق بين (دير ياسين) و(المستعمرات) التي حولها، ولم يدر القرويون أن القيادة اليهوديّة قد اختارت قريتهم كبدء (مرحلة) جديدة في خططها (العسكريّة) !

أطبقت (العصابات) بألفين من مقاتليها المسلّحين بأحدث الأسلحة على القرية، وبعد معركة غير متكافئة يتمكن المهاجمون من اقتحامها، والتنكيل بأهلها.

هامت (حياة) على وجهها وهي بقميص نومها، وإذ فوجئت باثنين من أهل القرية جرحى، حاولت إنقاذهما بنقلهما إلى مغارة قريبة ليكونا آمنين إلى أن يتّم إسعافهما: فحملت أحدهما على كتفها، وسارت به نحو المغارة.. وبعد مسيرة عشرة أمتار مزّق الجو صوت طلقات سريعة فسقط الجريح قتيلاً، وسقطت حياة فوقه مضرّجة بدمائها.

ولكن كيف عرف الكاتب بنهاية (حياة) المأساويّة والبطوليّة في دير ياسين ؟ ينهي قصّته بضربة فنيّة بارعة مقنعة تماماً، وواقعيّة، ومن لحم الحكاية: أمّا الجريح الثاني فقد قدّر له أن يعيش، ويروي خاتمة حياة...

وبجملة مباشرة يصف رحلة الفتاة المكافحة الشجاعة (حياة): حياة فتاة تذوّقت الجهاد في سبيل العلم، والأسى في سبيل العائلة، والبطولة في سبيل الوطن...

قصّة (حياة بلابسي) كتبها نجاتي صدقي في القدس، عام 48، وأنا قرأتها عدّة مرّات، وفي ذكرى مذبحة دير ياسين، وبعد أن قرأت الإعلان في (القدس العربي) يوم الأربعاء 29 آذار (مارس) عن تحضير أهالي القرية لإحياء الذكرى، عدت وقرأتها، لا كخبر، أو تحليل للمذبحة، ولكن كنّص فني، يحفظ ذكرى المذبحة، وبشاعة الجريمة، وعظمة كفاح فتاة فلسطينيّة تختصر بنهايتها كلّ فصول المأساة...

بيغن تباهى بأن مذبحة دير ياسين أسستّ لقيام (دولة إسرائيل)، بذبح العرب وتخويفهم مما ينتظرهم إن هم تشبّثوا بأرضهم.

بعد أن انهزم بيغن بمقاومة بيروت، اعتزل الحياة السياسيّة، وأقام في بيت غربي القدس، يطل على بقايا قرية (دير ياسين). قرأت أنه كان دائماً ينظر ذاهلاً، غارقاً في تأملاّته، دون أن يفصح عمّا يجري في عقله.

أكان يتساءل عن مصير (الدولة) بعد كل تلك (الانتصارات) الدمويّة، والمذابح التي اقترفتها العصابات التي كان هو أحد قادتها الدمويين ؟

يوم 9 نيسان (ابريل) 1948 أزهرت نوافير الدم المتطايرة من أعناق الفلسطينيين: نساءً رجالاً، أطفالاً، شيوخاً، ومن بعدها في صبرا وشاتيلا عام 82 ذبح الفلسطينيون نياماً، ولكن الـ(حياة) تتواصل، والفلسطينيون لا يموتون تماماً، بل يواصلون الحياة، بنّائين، متلمين، مقاومين، وهم يكتبون رحلتهم شعراً، ونثراً، ولوحات ملوّنة بأزهار نيسان...

وأنا أكتب هذه (الكلمة)، أتابع ذبح الفلسطينيين في العراق، بتهمة أنهم (عرب)، وبرصاص الطائفيين، في زمن الاحتلال الأمريكي الذي دخلت دباباته بغداد يوم 9 نيسان (ابريل) 2003.. تصوروا!: 9 نيسان (ابريل)، نفس يوم ذبح الفلسطينيين في دير ياسين!.. القتلة المحتلّون هم أنفسهم، وإن اختلف الزمن !

حجر رشيد

محمد الأصفر*

ظَهْرُ الدرج مزدحم : علبة عصير، فنجان قهوة مرتشف، قطعتا بسكويت، قلم رصاص إلخ ..

أتأمل هذه الأشياء، كيف اجتمعت، عصير عنب من النمسا، بن من البرازيل، رصاص صيني، خشب سويدي، بسكويت محلّى ظَهْرُ الدرج مُثخن بالأخاديد التي صنعتها إبر الفراجير على مر السنين. أمامنا عالم.. أو قل تاريخ برمته! أينك يا حجر رشيد حروف، أرقام، رسوم، رموز، أتلمسها كأعمى وأعجز عن فلسفتها، وإذ أُحاول السبر يواجهني يباس الصلادة الجافة. في ذهني تضطرم الأسئلة، تتقافز محترقة كفوشار، الزيت ناضب، والنار مجنونة والاحتراق حتى الترمد لا محالة، لولا طلّتها المنجدة المنعشة، كانت بجانبي تطوّق خصري، ساعتها جديدة، دقاتها صافية صاخبة، كلما رفعت يدها أعلى بطني بدأ قلبي في الارتجاف، دقُّ اللحم يغار من دقّ الفولاذ، أرفع رأسي عن الورقة ملتفتاً يميني، عيناها مشرقتان، جبينها وضّاء، أنفها شامخ، شفتاها.. العليا رقيقة بعض الشيء والسفلى ممتلئة بعض الشيء، وإذ يفترّان تبزغ إشراقة ابتسامتها الساحرة، في ذقنها ندبة جرح قديم.. رقبتها. صدرها.. قدماها.. إلى آخره أعود إلى الدرج محاولاً العبورداخل كُنه الأشياء، أُركز بصائر تفكيري، أستغرق في عصير العنب المصنّع في النمسا، آه كم هو لذيذ، كل حبّة ذرفت قطرة حلوة بانسّحاقها. في تلك المزارع البعيدة الباردة كان رشيد يجني العناقيد التي زرع شجيراتها وشذّب أغصانها وأبعد من حولها الحشائش الطفيلية. هو مثلي يعشق معلمة ويجلس بجانبها في فصل دراسي خال، ذراعها حول خصره، كلما رفعتها إلى حيثُ حبّة قلبه اصطخبت الدقّات اللحمية والفولاذية. هما مثلنا حبيبان يعيشان فورة الشباب وطموحه وحماسته، يبنيان عشهما بطوب وإسمنت الآمال المؤجلة.. لابد أنْ أُغامر وأركبه يا فطيمة!

وتتركني يا رشيد.. بعد أنْ استقر وأعمل أعود لأخذك أو أرسل لك الدراهم فتلتحقي بي.. عبر رشَيد البحر مختبئاً في غرائر الصوف المصدّرة إلى أوروبا، بعد أيام رست الباخرة في نابلي ومنها عُبّئت الحمولة في شاحنات شقّت طريقها إلى النمسا حيث تسلل في حرص وذاب وسط الزحام البارد لم يمض وقت طويل حتى تعرف على عجوز في إحدى الحانات اقتنته زوجاً لها وأصبح صهراً للنمسا متمتعاً بكافة حقوق المواطنة بما فيها الانتخاب.. التفتُ إلى آمال R. F في أعلى الدرج الأيمن أخدودان على شكل– عصير العنب والأخدودان.. – أيُعقل هذا، أيكون الدرج قد كان في المغرب؟ ولمَ لا ؟ صارت آمال تتأمل الأشياء، فنجان القهوة، قيشاني صيني، بن برازيلي، ماء ليبي، سكر كوبي. غمست سبابتها في قعر الفنجان وتذوقتها والتفتت ناحيتي بعينين ناعستين شهيتين فطوّقتُ خصرها بلهفة.

وكلما ضغطتْ أصابعي على ضلوعها أنّت بغنج وانفرج فمها، وإذ هي تعاود سريعاً غمس إصبعها وتذوقه، اضطرب فمها فلم يعد فمها، صار يرتعش بتوتر، يهمهم، يهذي، نظرها بالكليّة مشدود منصب جهة الفنجان المعبوث به والذي خُيّل لي أنّ حرثه بسبابتها قد حوله إلى حقول تنفث الكلم.. آه.. إلهي. ماذا أسمع؟ رشفت قهوة من مذاقك، طبيعية لا وجه لها.. جناها فلاح بائس، لمصلحة اللصوص، بين أشجار البن، دُسّت خشخاشة، داهمها الدرك، الطائرات المروحية تهرب، والفلاح واقف يقاوم الدرك، الخشخاشة جُنيت لدركي مضغ قاتها، وبصق خواءها في القبر، في جنازة الفلاح، وقبل الدفن، رشف قطرات من القهوة، عدّل مزاج جمجمته، وضع إصبعه في قاع الفنجان، حتى لا يقرأه أحد، كان يفكر كيف ينزع المذاق، وكنت أفكر في رشفتك. هل تصدقون أنّ البصقة رفضت أنْ يشاركها ميت، والقبر بكى.. أما الفلاح فنبت شجيرة بُنّ جديدة بوريقات خضراء... هدأت آمال ومالت ناحيتي، كنت آنذاك أقترب منها أتشممها وألاحق بلساني بقايا بُنّ ملتصقة بحواف شفتيها علّي أعرف بقية الحكاية، هممت بغمس إصبعي في الفنجان إلاّ أنّها أبعدته عنه! آمال تحبني.. تعشقني بصدق وتمنعني من تكرار أي شيء قد فُعل. مددت يدي إلى قطعتي البسكويت!

آمال.. ما هذا سحبت القطعتين واحدة التهمتها والأخرى رمتها في سلة المهملات، قبل أنْ أتفوّه بلعناتي، ألقمتني نصيبي ممضوغاً جاهزاً. وعلى حين غرّة نهبت قلم الرصاص بللت سنّه بلساني وطفقت أتمعّن فيه، سندوتش خشب محشو بدموع سوداء متحجرة، الرصاص يكتب والخشب لحاء يحمي العويد النحيف، عقلي يضج يا أحبائي، لم أستطع تخيّل شيء، ما إنْ ضغطت على الورقة حتى تكسرت السن، ولا مبراة ولا شفرة ولا سكين لدي. ركنت القلم جانباً وشبكتُ أصابعي في بعضها خلف رقبتها وهي كذلك طرق خفيف على باب الفصل- تفضلي إحدى المدرسات تريد عصا. ضحكنا- هل أكسر لك من هذا الدرج المخدّر أم من حافة السبورة المغبرة بالطباشير!؟ شاركتنا ضحكتنا وانسحبت ساحبة الباب خلفها فتعانقنا هذه المرّة صممنا على سبر أوشام الدرج بإحساس وبصيرة واحدة، كثفنا تركيزنا الذهني وحملقنا بحضور خارق حتى تلاشى إحساسنا بالزمان والمكان. . ما زالت تنتظر، والفلاح المغتال لم يدرك ثأره بعد، والبسكويت هُضم والذي Fحرف ما زال يجني العنب ويعصره كما تعصره السنون Rفي السلّة فتتته فلول النمل، وحرف الراكضة دونما شفقة. كل شيء عادي، كل أخدود يحكي مأساة أو ملهاة مألوفة، قد تقع لأي كان وفي أي مكان، الشيء الخارق للعادة والذي اعتبرناه مميزاً وفريداً هو قلم الرصاص المكسورة سنّه، يبدو أنّها سن لبنية، لحظناها تنتر من جديد كبذرة ظمئة بللها طل عذب ودفأتها شمس صباحية. وإذ دخل علينا المدير والخفير وأهل آمال وأهل زوجتي والبوليس والحرس البلدي والمأذون والمفتي وثلّة من الفضوليين وحتى الشامتين وبقية الركب من العوالّة والتابعين.. إلخ وإذ أضاؤوا النور حيث كان الوقت جاوز منتصف الليل حتى صرخنا لفراق وأنفكاك إحساسنا وتركيزنا الموحد قبل أنْ يمطرونا بوابل أسئلتهم أمطرناهم بإغماء مصطنع لذيذ. سويت الحادثة عرفياً وعدنا إلى الجلوس في ذات الدرج، وكل يوم نتركه ونمتطي جديداً، ونعود إليه مجدداً ونتركه. اقتنينا فرجاراً نخدّد به الزمان المار ومع الأيام شخنا وذهب البصر شيئا فشيئا، وأيدينا وهنتَ ما عادت تقوى على الوخز بالفراجير.

ولجنا زمن التلمس نتلمس ونحكي ونضحك، وذهب سمعنا أيضا فشرعنا نتلمس أخدوداً ثم نتلامس بأيدينا فنفهم ما نعني.

وغزانا الشلل اللعين، فعجزنا عن تحريك أطرافنا، والكلام ننطقه ولا يُسمع، دموعها تبلل خدّي، أتذوق دفأها المالح وهي تفعل مثلي. وجفّت دموعنا، وأنفاسنا تتلاقى عن طريق حرارتها وبطئها وسرعتها ولهاثها فنتفاهم ونتواصل وعندما تناقصت أنفاسنا وأخذت تشح وتتقطع وتضمحل عرفنا أننا على وشك.. على شفير..

* كاتب من ليبيا